

علاقة البلاغة بالتداولية

د.عمار لعويجي جامعة سكيكدة

ملخص:

إن الحديث عن العلاقة بين البلاغة والتداولية يذهب بنا بعيداً في البحث في جذور علم قديم قدّم الوجود الإنساني، فالبلاغة علم تراثي متجذر في الموروث البشري وخاصةً عند اليونان والعرب، وهو ما يطلق عليه "البلاغة القديمة" لكن هذا العلم لم يبق حبيس عصره بل سائر التطور الإنساني بكل ماتحمله العبارة من دلالة، فالدراسات الحديثة والمعاصرة أطلقت على الدرس البلاغي تسميتان: الأولى "البلاغة الجديدة" والثانية "البلاغة المعاصرة" حيث ألبست البلاغة حلة جديدة معاصرة لما وجدت من تداخل وتقاطع بينها وبين مناهج نقدية ولسانية كاسميولوجية والأسلوبية والتداولية والعرفنية، فإذا كانت التداولية تدرس اللغة وقت الاستعمال فإن البلاغة هي المعرفة باللغة أثناء الاستعمال، ويتقطعان في الاعتماد على اللغة بعدها أداة لممارسة الفعل اللغوي على المستمع (المتلقي) في سياقات مناسبة ومراعاة لكل مقام مقال في العملية التواصلية: لأن اللغة وسيلة للتعبير عن الأغراض والمعاني ذات القيمة النفعية، فهما علمان يهتمان بكل أشكال التفاعل الخطابي وبالعلاقة التواصلية في كل أبعادها الاجتماعية والإيديولوجية والنفسية.

Summary:

The discourse on the relationship between rhetoric and deliberative go away looking at the roots of an old flag made of human existence, heritage flag rhetoric is rooted in the human heritage, especially when Greece and Arabs, is A so-called "old rhetoric" but this flag was left locked in his era but were practically all human development is the term indication, modern and contemporary studies launched the first lesson: First "new rhetoric" and the second "contemporary rhetoric" where contemporary plunged new suit rhetoric found overlap and intersection between cash and curriculum semilogism and stylistic and linguistic deliberative Gnostic, If the deliberative taught time use the rhetoric is knowledge of language during use, break dependence on language already practice tool for linguistic dimension to listener (receiver) in appropriate contexts, taking account of all the shrine of an article in the communicative process; because language is a means to express the purposes and meanings of the utilitarian value, alman understanding interested in all forms of the rhetorical and communicative interaction in all social, ideological and psychological dimensions.

مقدمة:

تتناول هذه الدراسة البحث في القيمة المعرفية والإجرائية للبلاغة وعلاقتها بالتداولية، فهي تزود الخطيب أو المبدع بمجموعة من الأدوات والتقنيات والآليات

...أما العلاقة فتبحث في كيفية إيصال المعنى إلى المتلقي (القارئ)؛ لأنه هو الذي يعيد إنتاج الرسالة من خلال فعل القراءة بعد التمكن من فك شفرتها عن طريق عمليات التحليل والتفسير والتأويل وفق سياقات لغوية وغير لغوية مراعيًا جملة من مقتضيات الأحوال.

فالعالم اللغوي يستثمر في علوم البلاغة قديمًا وعاد يستثمر فيها من جديد في جدلية أخذ وعطاء لاتنقطع لإنتاج خطاب ذا أبعاد تأثيرية في عموم المتلقين، إذ البلاغة في تصورنا خزان معلومات دلالية ودلائلية وفنية وجمالية لا ينفذ يستعين بها الدارس في أداء مهمته النقدية أو اللسانية حسب ميولاته ومرجعياته الفلسفية والفكرية والأدبية.

- فهل للبلاغة علاقة بالتداولية؟

• علاقة البلاغة بالتداولية؛

البلاغة علم قديم متجذر في التراث الإنساني وخاصة عند اليونان والعرب؛ لما فيه من إمكانات معرفية وإجرائية تساهم في تحليل الخطاب ونقده، مقدمة نفسها - البلاغة - بوصفها المعرفة الجديرة بالاهتمام لما صارت تحظى به الخطابات التداولية (السياسية والدينية والإعلامية...) من وقع لدى المتلقي. ولأجل ذلك اتجهت مجموعة من الدراسات إلى استثمارها في تحليل نصوص تنتمي إلى أنواع خطابية مختلفة «والحق أن التحليل البلاغي للأدب وإن أسهم في إبراز المكون الحجاجي الذي تنبني عليه معظم الأعمال الأدبية الكلاسيكية، إلا أنه لا يمكنه اختزال تلك الأعمال فيما تضطلع به وظائف تأثيرية عملية إنه سيظل تحليلًا يتطلب نوع من الإنتاج الأدبي للأعمال الكلاسيكية والشعر السياسي»¹.

إن الباحث في البلاغة العربية يلحظ ذلك التقارب بين كثير من مباحثها، وبين ما أورده كل من (أوستين وسورل) في نظرية الأفعال الكلامية والتي من أهم مرتكزاتها:

أ- كل قول يقصد به إنجاز فعل ما، فـ "النطق بالجملة هو إنجازها وإنشاؤها".

ب- إن فعل التلفظ بالقول يُعتبر من منظور أوستين فعلًا بل فعلًا أساسيًا من قوى القول، ويتمثل في إنتاج أصوات وعبارات مفيدة ذات دلالة طبق أحكام النحو المعجمية والصرفية والإعرابية.

ج - الفعل المقصود بالقول، هو الفعل الإنجازي الحقيقي لأنه فعل يُنجز بقول ما ولأجل ذلك سمى أوستين الوظائف اللسانية المتضمنة في هذه الأفعال القوى الإنجازية، ومن أمثلة ذلك: السؤال وإجابة السؤال، والوعد، والأمر، والتأكيد... إلخ.

د- فعل التأثير بالقول، هو ماينتج عن القول من آثار للمخاطب إثر القول من قبيل: الإقناع، والإرشاد والتضليل، والتثبيط...إلخ.

ويكفي أن نشير أن قول شيء ما في نظر(أوستين) هو بوجه عام إنجاز الاستعمال وأداء النطق (pheme) أو ماتركب منه من وحدات دالة على معنى معين على وجه ما، ويشير إلى مرجع معلوم على نحو ما، (إذ المعنى والمرجع يكافئان الدلالة) وهذا الانجاز في صورته الأخيرة ينبغي أن نطلق عليه الفعل الخطبي (بضم الخاء) rhetic، وملاءمة صياغة الخطاب على وجه مخصوص مصطلح القول الخطبي (بضم الخاء) rheme² وهي معاني أحصتها البلاغة العربية.

وتتميز الجرجاني(471هـ) بين النطق بالكلمات وفق النظام الصوتي للغة المتكلم بها، وبين ما تؤديه من معاني وأغراض تحددها كيفية ترتيب الكلمات ترتيباً موجهاً بمقصدية المتكلم وغرضه من القول شبيه بتميز أوستين بين: فعل القول، والفعل المتضمن في القول، ولا يكون لفعل القول في ذاته مزية حتى تنتقل منه، إلى الفعل المتضمن في القول: « وإذا كان هذا كذلك، فينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً، وأمرًا ونهيًا واستخبارًا وتعجبًا»³. أو غيرها من «الأغراض التي يوضع لها الكلام»⁴.

إن مزية الكلام ليست مقتصرة على جمالية التصوير، أو الخصائص الأسلوبية التي تجعل الكلام أكثر حسناً، بل الغرض والمقصد إبراز الطاقة التأثيرية ودرجات القوة التي ينطوي عليها فعل القول والتي قد تزيد أو تنقص بحسب شكل الترتيب وموقع الكلمات من الجملة مما يؤكد أن الشكل النحوي يُضمّر » مجموعة من الإمكانيات التعبيرية...لم تحظ معظمها بعناية البلاغيين»⁵.

ونظرية النظم عند الجرجاني كانت تراهن على البعد الإنجازي للأفعال الذي شكل نواة نظرية الأفعال الكلامية، حيث « قول شيء ما، هو فعل شيء ما»⁶ ومن الأمثلة التي يستحضرها الجرجاني، قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾⁷ والتي أفادت إثبات قوة اكتساح الماء وفورانه وتغطيته لكل الأرض «ما لا يمكن أن يفيد» قولنا "فجرنا عيون الأرض" أو العيون في الأرض»⁸.

إن العلاقة بين البلاغة والتداولية تتمثل في رصد كفاءات إيصال المعنى إلى المتلقي (القارئ) لأنه هو الذي يعيد إنتاج الرسالة من خلال فعل القراءة، ولا بد من أن يتمكن من فك شفرة هذه الرسالة ولا يكون ذلك إلا بإعادة تحليلها وفق الفهم، وفهم البلاغة يعني فهم التداولية لأن «التداول هو بحث في استعمال اللغة،

لأنظماها»⁹ أي بحث في استعمال اللغة وسيلة للتواصل والعناية بتحليل العلاقة بين الخطاب ومستخدميه للوصول إلى الفهم والتأثير من زاوية السياق والمقصد ومقدار احترام معياري الصحة والمناسبة ومبادئ التآدب والتعاون والسلطة، وبهذا تكون البلاغة العربية فعلاً بلاغة تداول في الشق من المباحث البلاغية الذي يدمج بين مبحثي البيان والمعاني.

إن غاية الأديب هي إفهام المرسل إليه (القارئ) من خلال تحديد السياق، فالسياق بنوعيه اللغوي والمقامي ضروريان في البلاغة والتداولية، ذلك أن المعنى لا يرتبط بالكلمة فقط وهي في حالة الأفراد وإنما يعني دخولها في علاقات متبادلة مع كلمات أخرى تختلف معها وتتشابه لأداء المعنى التركيبي حيث يقصد بالسياق اللغوي « الإطار الداخلي أو البنية الداخلية للغة دون الرجوع إلى المجتمع »¹⁰، وللأشكال البلاغية أثر على المتلقي بالاستناد إلى المقام على اعتبار أنه الذي يمكننا من فهمها فهماً لغوياً جمالياً تواصلياً وذلك عند محاولة تحديد موقعها لحظة الإلقاء أو الكتابة، فلا بد من السعي إلى تمثل المقام الذي أنجبها هذا إذا أردنا أن تكون قراءتنا صحيحة وتفتح المجال على قرائية أخرى.

فالبلاغة نظرية في الكشف والإيصال والتأثير « تُعبر عن محصلة كبيرة من استراتيجيات ومبادئ في الإيصال وأنماط رسمية لاستخدامها يطبقها كل من المتحدثين والمستمعين، حتى يتم التفاعل بينهما بنجاح، وتتحقق أهداف الاتصال في مقامات متعددة وظروف مختلفة بشكل فاعل بكفاية »¹¹.

ويرى ابن خلدون (1406م) أن اهتمام الإنسان إلى تركيب طبقات الكلام على المقاصد والأغراض هو الذي يحرره من القيود الطبيعية التي تحوطه، وكان قد نبه على اختلاف الأساليب باختلاف الزمان ودعا إلى مطابقتها لمقتضى الحال « فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام أسلوب يخصه »¹²، وهذا هو أساس التداولية.

والدلالة تأتي عبر مستويات اللغة المختلفة، لأنها تجريدية ذهنية وهذا يظهر مرة أخرى عن العلاقة القوية بين البلاغة والتداولية ودور السياق في فهم دلالة النص باعتباره وحدة كبرى.

« ولكي نتبين بطريقة منظمة علاقة النص بالسياق ينبغي لنا أن نعرف بنية السياق كما نتعرف على بنية النص، ومادام السياق تجريداً للموقف التواصلي.

فما هي تلك العناصر التي يتضمنها ؟

والإجابة عن هذا السؤال يسيرة لأنه لا يتضمن من الموقف سوى تلك العناصر التي تحدده بشكل منظم :

أ - قبول النص أو رفضه.

ب - كفاءته أو عجزه.

ت - ملائمته أو منافرتة»¹³ .

ويميز (جورج مونان) بين السياق والمقام في معجمه، فيقول: «وينبغي تمييز السياق الذي هو لساني عن المقام الذي هو الخبرة غير اللسانية (...) في المقام، نشير إلى قلم على الطاولة قائلين: أعطيني إياه، ونكتب مقابل ذلك: أعطيني القلم الذي على الطاولة»؛ رادّين المقام الغائب إلى السياق اللساني»¹⁴ .

وعدّ (فرنسوا راستيني) التداولية بديلاً للبلاغة الكلاسيكية: «...كما حاولت التداولية وهي فرع آخر من فلسفة الدلالة أن تضع في الاعتبار البنى النصية عبر بحوثها في الحجاج وعبر تحليل المحادثات وتبقى روابطها باللسانيات غير واضحة وفي الواقع، وكما بيّنا ذلك في غير هذا الموضع فإنّ التداولية قد عوضت البلاغة في جانب من الجوانب بعد انفجار الثالوث: النحو/ البلاغة/ الجدل، لذلك فهي تتخذ من التخاطب موضوعاً لها بدلاً من النص في حد ذاته»¹⁵ فعبارة (الذي على الطاولة) توضح السياق وتغني عنها الإشارة باليد أو غيرها في المقام.

فالسّياق- إذا- ذو مفهوم لساني، أما المقام فوضعي غير لساني، والعلاقة بينهما علاقة تكامل «حيث يسمح المقام بإزالة الإبهام عن الجملة، ويغني المعلومات التي يعطيها لئلا تكون بحاجة إلى التعبير عنها باللفّة»¹⁶ .

وعلى هذا الأساس، فإنّ محلل النص أو الخطاب، لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار الأبعاد السياقية للخطاب خاصّة وأنّ بعض الأشكال اللغوية لا يمكن فهمها بتحليل عليه دون الرجوع إلى سياق تلفظها. يرى (براون ويول) أنّ: «على محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يرد فيه جزء من خطاب، إذ هناك بعض الحدود اللغوية التي تتطلب معلومات سياقية أثناء التأويل، ومن هذه الحدود المعينات مثل: هنا، الآن، أنا، أنت هذا، ذلك من أجل تأويل هذه العناصر حين ترد في خطاب ما، من الضروري أن نعرف (على الأقل) من هو المتكلم ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب»¹⁷ .

وهكذا أصبح اللغويون ينظرون إلى المقامية كأحد أهم العناصر التي تقوم عليها النصية. وقد ترقب عن ذلك اقتناع بأنّ «دراسة النصّ لن تكون كافية بالوقوف فقط عند وصف بنيته النحوية أو الدلالية الداخلية، بل لا بد من دراسته على مستوى الخطاب، وهو ما يعني الاهتمام ببنية السياق والعلاقات بينها وبين النصّ»¹⁸ .

يقول تمام حسان: «وفكرة المقام هذه هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر، وهو الأساس الذي ينبني عنه الشق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال»¹⁹.

ومما يدعم علاقة البلاغة بالتداولية، ما جاء في معجم ألفاظ الأسلوبية لـ جون مازاليا وجورج موليني (Jean Mazaleyrat et George Moulinier) ثلاث معانٍ للبلاغة:²⁰

1- البلاغة مبحث قديم يهتم بفن الإقناع في مكوناته وتقنياته: استنباط الحجج ومعالجتها وبثها «ومن هذه الزاوية نجد البلاغة اليوم في ارتباط بالتداولية»²¹.

2- البلاغة مجموعة من صور التعبير منفصلة عن نوع الخطاب الذي استعملت فيه.

3- وقد تعني الكلمة أحياناً المقاييس المعيارية لفن الكتابة (معنى عارض)، وبذلك يبقى للبلاغة في التقليد الغربي معنيان كبيران: المعنى الحجاجي الإقناعي الذي يصب في التداولية الحديثة، والمعنى التعبيري الشعري الذي يصب في الأسلوبية، وهذه الثنائية تعري باسترجاع ثنائية البديع والبيان في نشأة البلاغة العربية.

ويرى (جيفري ليتش) أن البلاغة «تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع»²². فكلاهما يهتم بعملية التلطف بالخطاب قبله وأثناءه إلى غاية إنجازها؛ فالبلاغة والتداولية يتقاطعان في «دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلام والمقاصد من الكلام»²³.

كما دعم هذا الرأي (هنريش بليت) في كتابه "البلاغة والأسلوبية" حيث رأى : « أن سبب هذه النهضة البلاغية يرجع في مجال التنظير إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية ونظريات التواصل والسيمانيات والنقد الايديولوجي، وكذلك الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها. ونتيجة لهذه الأهمية يجب أن نسجل أولاً أن البلاغة قد صارت علماً، وأننا نهدف من جهة ثانية إلى نظرية بلاغية، وأن البلاغة من جهة ثالثة، ليست

محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم بل تنزع إلى أن تصبح علماً واسعاً للمجتمع»²⁴.

فالباحثون اليوم يكادون يجمعون على «أنّ البلاغة هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية وعلّم النّص والسيميوولوجيا، وهي النّموذج المؤمل عليه للعلم الإنساني في إطاره الشامل الجديد»²⁵.

ويتضح أنّ ما اصطلح عليه بالبلاغة الجديدة تم فهمه في إطار المناهج النقدية الحديثة وتحليل الخطاب ومن بينها الاتجاه البنيوي، والاتجاه السيميولوجي فالاتجاه التّداولي، وقد اعترف (تدوروف) سنة 1979م بأنّ «السيميوولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة وقد اتضح أن مفهوم بلاغة الخطاب مرهون بالاعتداد بها كعلم لكل أنواع الخطاب علم عالمي في موضوعه ومنهجه..وقد التقى هذا التيار ببحوث تحليل الخطاب من منظور وظيفي تداولي لغوي كما أخذ يصب بشكل مكثف في اتجاهات علم النّص»²⁶.

خاتمة:

إنّ معرفتنا المقام الذي يلقي فيه المقال، وكذلك حال المتكلم والمتلقي أثناء التلفظ، عوامل تراعيها البلاغة أثناء الخطاب ومقاصده، وهو ما يقابله تداوليا التركيز على مستعملي اللغة وسياقات الاستعمال المختلفة؛ أي استخدام اللغة كما يقررها سياق المجتمع، فالبلاغة المعاصرة تهتم بعناصر الخطاب ومقاماته المختلفة وفق آليات حجاجية بلاغية وتداولية، كما يعتمدان معاً على اللغة كأداة للتواصل وممارسة فعل التأثير على المتلقي؛ ليكون الفعل اللغوي فعلاً تأثيرياً إنجازياً نفعياً.

:

الهوامش

¹ - محمد مشبال: البلاغة والسرد، منشورات كلية الآداب، ط1، تطوان، المغرب، 2010م، ص50.

² - أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، ص112.

³ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ص35.

⁴ - نفسه، ص69.

⁵ البلاغة والأصول: دراسة في أسس التفكير البلاغي عند العرب- نموذج ابن جني، - : محمد مشبال مطبعة أفريقيا الشرق، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص121-122.

⁶ - أوستين: نظرية الأفعال الكلامية العامة، ص10.

- ⁷ -سورة القمر، الآية [12].
- ⁸ -عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص102.
- ⁹ -جان موشر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الباحثين بإشراف عز الدين المجذوب، مر: خالد ميلاد، دار سيناترا، تونس 2010م، ص12.
- ¹⁰ - جاسم محمد عبد العبود: مصطلحات الدلالة العربية (دراسة في ضوء علم اللغة الحديث)، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 2007م، ص141.
- ¹¹ - منال النجار: المقولات البلاغية " دراسة مقامية براغماتية "، ضمن كتاب: حافظ اسماعيل علوي: التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، ط1، أريد، الأردن، 2011م، ص559.
- ¹² -ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، ط11، بيروت، لبنان، 1992م، ص533.
- ¹³ - صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 2006م، ص32-33.
- ¹⁴ -خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم بيت الحكمة، ط1، العلمة، الجزائر، 2009م، ص116.
- ¹⁵ -صابر الحباشة: الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقرطبي، الدار المتوسطية للنشر، ط1، تونس، 2010م، ص60.
- ¹⁶ -نفسه، ص117.
- ¹⁷ -خطابي محمد: لسانيات النص (مدخل إلى إنسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، ص29.
- ¹⁸ -محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008م، ص99.
- ¹⁹ -تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1979م، ص337.
- ²⁰ - لخداري سعد: الأنساق البلاغية القديمة وموقعها من حقلي: السيميائية وتحليل الخطاب، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، العدد 19، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، ص69.
- ²¹ -سماح رافع: المذاهب الفكرية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص49-52.
- ²² - صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص121.
- ²³ -جيليان براون، جورج يول: تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 1997م، ص32.
- ²⁴ -هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية، تر: محمد العمري، إفريقيا الشرق، 1999م، ص22.
- ²⁵ -صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص250.
- ²⁶ -نفسه، ص96.